

الفصل الثاني

التاريخ القديم — قصى — عبد المطلب — سطو الحبشة —
المولد النبوى — رسالة النبي (ص) — الهجرة

يستقى المؤرخون معلوماتهم عن التاريخ القديم لجزيرة العرب من التاريخ القديم
مصدرين هامين :

(١) القرآن الكريم .

(٢) الرواية الشفوية التي من عادة العرب في جميع الأزمنة أن يتناقلها
الخلف عن السلف .

وقد اهتم المؤرخون منذ القرن الثامن الميلادى وما بعده بجمع شتات تلك
الآداب والروايات بالرغم من الصعوبات التي كانت تجابههم في ذلك السبيل ؛
كما أن النقوش التي اكتشفها الأثريون في جنوبى اليمن ، والرموز التي استطاعوا
حلها فيما بعد تؤيد إلى حد بعيد تلك المعلومات والروايات .

والشعب الذى نغنى خاصة بدرس تاريخه وتتبع تطورات حياته هو عرب
الحجاز واليمن ، الذين حازوا منزلة سامية فى المصور الوسطى ، وقد اشتهرت من
بين تلك القبائل قبيلة « قريش » المتحدرة من « فهر » الملقب « بقريش »
ومعناها « تاجر » فى اللغة العربية القديمة ، وهو من أولاد « معد بن عدنان »
من نسل إسماعيل عليه السلام ؛ وقد كانت هاته القبيلة تفتخر دائماً بنسبها ،
وتعتبر نفسها أشرف جميع القبائل العربية على وجه الإطلاق .

وفى القرن الخامس الميلادى تغلب « قصى » على أمر « مكة » وأصبح
زعيم الحجاز دون منازع ، ولم تكن « مكة » فى الواقع حتى أوائل حكمه غير

قرية حقيرة مؤلفة من عدة أكواخ وخيم مبعثرة هنا وهناك ، فأعاد بناء الكعبة وشيد داراً خصص بهوها الكبير للشورى حيث يجتمع كبار قريش للتشاور في أمورهم . ومن مآثره أيضاً أنه حمل شعبه على تشييد منازلهم بالحجارة حول الكعبة كما سن القوانين لحكمهم حكماً صحيحاً ، وجمع الضرائب وعين السقاية والرفادة للحجاج الذين كانوا يؤمون مكة من أنحاء الجزيرة في أوقات الحج .

عبد الدار

ولما توفى « قصي » عام ٤٨٠ م ، ولي بعده ابنه « عبد الدار » الذي حمل لواء الزعامة ردحا من الزمن حتى أدركته منيته ، فنسب خلاف شديد بين أحفاده وبين أولاد أخيه « عبد مناف » حول من يتولى الحكم من بعده ، بيد أنهم أجموا أمرهم فيما بعد على حسم الخلاف بطريق اقتسام السلطة بينهم فجمعوها على النحو التالي :

(١) السقاية والضرائب لعبد شمس أحد أولاد عبد مناف .

(٢) السدانة والندوة والعقاب لأحفاد عبد الدار .

ولكن لم تكد تمضى مدة وجيزة حتى تنازل عبد شمس عن الزعامة لأخيه « هاشم » ، الذي كان تاجراً ثرياً مشهوراً بإكرام الضيف واستقلال الشخصية ، غير أنه لم يلبث أن لاقى حتفه عام ٥١٠ م فألت الزعامة من بعده إلى أخيه « مطلب » الملقب بالكريم . وقد توفى هذا أيضاً في أواخر عام ٥٢٠ م خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم .

هاشم بن
عبد المطلب

وبالرغم مما كان يتمتع به أحفاد عبد الدار من السعة والثراء فقد حسدوا بني هاشم على رفيع مكاتهم وحاولوا أن ينتزعوا حكم مكة منهم ويستأثروا بالحكم دونهم ، فأحاز إليهم في سبيل تحقيق تلك الغاية « أمية بن عبد شمس » الطموح النفس ، ولكن عبد المطلب برغم هذه المحاولات تمكن من الاحتفاظ بالزعامة نظراً لما كان يتمتع به من سمو المكانة وعلو الهمة ، فظل مضطعاً بأعباء

أمية

الحكم في مكة زهاء تسع وخمسين سنة ، يساعده في تصريف الأمور رؤساء الأسر العشر الشهيرة .

عام الفيل

وفي عهد « عبد المطلب » أغار على الحجاز جيش جضل من الأحباش بقيادة « أبرهة » الذي كان في خلال زحفه على مكة يمتطى فيلاً ضخماً لم يكن للعرب عهد به من قبل ، فعرف عام ٥٧٠ م الذي وقع فيه هذا الفزو « بعام الفيل » ؛ ولكن القوة المغيرة لم تلبث أن هلكت عن بكرة أبيها نظراً إلى انتشار مرض وبأى بين الجنود من جهة ، وإلى هبوب رياح شديدة وهطول أمطار غزيرة من الجهة الأخرى .

عهد (س)

وقد كان « لعبد المطلب » أبناء وبنات كثيرون اشتهر منهم في تاريخ العرب أربعة هم : عبد مناف الملقب « بأبي طالب » ، و « العباس » جد الخلفاء العباسيين ، و « حمزة » ، و « عبد الله » ، كذلك كان له ابن عم آخر اسمه « أبو لهب »^(١) ذكره القرآن الكريم لاضطهاده المسلمين . أما عبد الله أصغر أولاد « عبد المطلب » فهو أبو النبي العربي تزوج من آمنه بنت وهب إحدى فتيات يثرب ، ووافته منيته وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وبعد وفاته بأيام وضعت^(٢) آمنه ولداً أسماه جده « محمداً » ولكنها ماتت عنه طفلاً في السادسة من عمره فكفله جده الكهل الذي قبضه الله عام ٥٧٩ م . وكان قد أوصى به قبل وفاته إلى « أبي طالب » الذي خلفه في حكم مكة ، فقضى « محمد » صلى الله عليه وسلم في بيت عمه عهد الطفولة ، وكان رضى الشائل ، رقيق الحاشية ، مرهف الحس ، فياض القلب ، محبوباً من إخوانه ومعارفه القليلين ، ولكنه مع ذلك لم يستمد الراحة في صباه ، إذ لم يكن عمه ثرياً كأسلافه ، فقام بنوه وابن أخيه « محمد » برعاية الغم .

(١) يقول فيه تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها جبل من سد » . (المرب)

(٢) ٢٩ آب سنة ٥٧٩ م .

وكان (صلى الله عليه وسلم) ^(١) منذ صباه ينزع إلى التأمل والتفكير، فسافر مرتين مع عمه «أبي طالب» إلى الشام حيث شاهد بنفسه ما كان عليه أهلها وقتئذ من الانحطاط الخلقى والانقسام في الدين، ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج من خديجة المشهورة في تاريخ العرب بنبل أخلاقها وحميد خصالها . فولد لها عدة أولاد ، توفي الذكور منهم في سن الطفولة . أما البنات فقد أمد الله في أعمارهن حتى رأين جسام الحوادث التي تخللت حياة أبيهن ، وقد تزوجت صفراهن «فاطمة» الملقبة «بالزهراء» من علي بن أبي طالب ، وكانت آية في الجمال والذكاء والظرف ، ولهذا سميت «بالزهراء» .

قضى «محمد» صلى الله عليه وسلم بعد زواجه خمسة عشر عاما في حياة هادئة ، لم يظهر خلالها في الحياة العامة إلا مرة أو مرتين : الأولى لإحياء المجلس القديم «دار الندوة» ، الذي كان قد تأسس في الأصل لإنصاف المظلومين ، وإيواء الغرباء ، وحماية الأرامل والأيتام . والمرة الثانية : لكي يحسم النزاع ^(٢) الذي كان قد نشب بين زعماء العرب ، وكاد يؤدي إلى نتائج خطيرة ، لولا سرعة خاطره وحده ذكائه .

ومع أن هذا هو كل ما نعرفه عن حياته الأولى ، إلا أننا نعلم علم اليقين أن وداعته وطهارة قلبه وحبه للواجب وأمانته كلها أكسبته محبة مواطنيه حتى لقبوه «بالأمين» ، وكان من أخص صفاته كلفه بالصفار الذين كانوا كلما رأوه التفوا حوله فرحين مهلين . ويقال إنه لم يكن ليربهم قط دون أن يحميمهم بابتسامته الوديمة ؛ كذلك كان يقضى شهراً واحداً من شهور السنة في عزلة التأملات

(١) لقد كان سيدنا محمد (ص) أكرم الناس خلقاً ، متواضعاً ، حليماً ، كريماً ، شهماً ، غيوراً ، مقداماً ، جليلاً ، بعيد النظر ، عادلاً ، منسحماً ؛ ولقد أجل القرآن الكريم وصفه في قوله : « وإنك لعلی خلق عظیم » . (المعرب)

(٢) اختلف أشراف مكة أيهم يضع الحجر الأسود مكانه في الكعبة فحكم الرسول بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر في رداءه وطلب إليهم جميعاً أن يرفعوا الرداء .

الروحية في غار « حراء » بضواحي مكة . ومن المعلوم أنه بينما كان ناعماً ذات ليلة في ذلك الغار خاطبه^(١) ربه أن يقوم وينذر الناس ، ومنذ ذلك الحين قصر حياته على انتشال الناس من دركات الهوان وحضهم على ترك الشرور والآثام ، وتعليمهم ما لهم وما عليهم من الواجبات .

الرسالة

وكان أول من آمن برسالته زوجته « خديجة » ، ثم علي بن أبي طالب ، وأبو بكر ، وحزرة ، وعثمان ؛ ولكنه ما كاد يجهر بالدعوة حتى سخرت منه قريش ، وطفقت تسومه صنوف العذاب ، وتفقت بأتباعه حتى اضطرب بعضهم أن ينزح إلى الحبشة ، بينما ظل البعض الآخر يلزمه متحملاً في ذلك كل أذى بصبر جميل . وعلى أثر وفاة « أبي طالب »^(٢) و « خديجة » من بعده بالفت قريش في اضطهادها حتى ينس الرسول من أن يصيب نجاحاً بينهم وحول وجهه شطر الطائف ، غير أن أهلها حصوه فماد أدراجه حزيناً مهموماً ، وراح يقصر همه على الأعراب الذين كانوا يؤمنون « مكة » في أوقات الحج لعله يجد بينهم من يستمع إلى قوله فتكفل سعيه بالنجاح ، وآمن به نفر من أهل يثرب ، ثم بايعوه على الإسلام على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ، ولا يسرق ، ولا يزني ، ولا يقتل أولاده ولا يأتي بهتان يفتره بين يديه ورجليه ، ولا يعصيه في معروف فإن وفي ذلك فله الجنة ، وإن غشي من ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر^(٣) . وعندما رجع هؤلاء إلى مدينتهم طفقوا يذيعون خبر ظهور

(١) نزل عليه الوحي يناديه : « اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ » ، فكرر ما عليه مرتين ، ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . (المغرب)

(٢) كانت قريش قد شكته إلى عمه أبي طالب فنصح له . فقال الرسول : « والله يا عمي لو وضوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . (المغرب)

(٣) لقد تحدته قريش بأن يأتي بالمعجزات فنزل قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن وهو أقوى =

ذلك النبي الجديد الذي جاء لهدايتهم . وفي عام ٦٢٢ م عند حلول موسم الحج أرسلوا إليه وفداً يدعوه للعيش بين ظهرانيم فأثارت تلك الدعوة سخط قريش وزادت في لهيب المنازعات التي كانت تستمر وقتئذ بين المدينتين ، وفر عدد غير ضئيل من المؤمنين إلى يثرب ، فراحت قريش تدبر مؤامرة لاغتيال الرسول (ص) وكان قد تحلف فيها مع أبي بكر وعلي بن أبي طالب ، ولكنه ما أن علم بما يتوالت له حتى أسرع هو وأبو بكر إلى غار^(١) على مقربة من مكة ، كذلك كان قد أوعز إلى « علي » أن ينام في فراشه لكي يضل الأعداء ويؤخرهم عن اللحاق به . فلما بلغهم خبر فراره استشاطوا غضباً ، وراحوا ينثون العيون والأرصاء للقبض عليه ، ولكنه أقام هو وصاحبه بالفار يومين كاملين ؛ وفي اليوم الثالث ركبا راحلتين إلى يثرب ، فوصلها يوم الجمعة ٢ تموز سنة ٦٢٢ م ، وبعد قليل لحق بهما « علي » ، وقد أرخ المسلمون سنتهم بالهجرة ، وأصبحت تدعى السنة الهجرية .

الهجرة

== مجزأته وبلغ من غلو قريش في العناد والجحود أن قالوا بلسان القرآن : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . (المعرب)
(١) وفي مطاردة قريش « لمحمد » وفي قصة الفار نزل قوله تعالى في سورة التوبة :
« إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » . (المعرب)